# الاستمارية والواقعية في الرواية السنغالية

بقلم ماما دوغاي

لقد نشأت الرواية في الآداب العالمية نوعاً أدبياً محتقراً لا يمت إلى الحياة الواقعية بصلة . ومع مرور الزمن أخذ هذا النوع يقترب من واقع الحياة حتى أصبح أصدق تعبير عنه في القرن التاسع عشر على أيدي بلزاك ، وإميل زولا وأمثالهما . ثم استمر الوضع على هذا النحو إلى يومنا هذا على الرغم من الحركات التي عارضت هذا الاتجاه مثل « الرواية الجديدة » التي ظهرت حوالي منتصف القرن العشرين . أما الرواية العربية التي تعتبر وليدة هذا القرن فلم تكد تعرف المرحلة السابقة للمرحلة الواقعية بينما لم يكد يتحقق ظهور الرواية واقعية منذ البداية إلا في الأدب الزنجي الأفريقي وبصفة خاصة في الأدب السنغالي .

لقد كان الأدب السنغالي من أقدم الآداب التي قدمتها القارة السوداء ولم يزل هذا العطاء مستمراً إلى يومنا هذا . ولعل الرواية تنفرد بنصيب الأسد في هذا النتاج الأدبي السنغالي الذي قد لا نجانب الحقيقة إذا وصفناها بالاستمرارية . فهناك مجموعة من الموضوعات الحية التي تنوولت منذ أول عصر الرواية في الأدب السنغالي ولا تزال أقلام الأدباء السنغاليين تجري بها حتى الآن . ومن تلك الموضوعات الخالدة التقاء الثقافات أو صراع الحضارات أو بتعبير آخر الصراع بين التراث والمعاصرة ويتمثل ذلك في محاولة أفراد المجتمع المسلم الأفريقي في الحفاظ على ما كانوا عليه قبل مجيء الفرنسيين المستعمرين من عادات وتقاليد وطريقة حياة وأسلوب تفكير ، وذلك في الوقت الذي تأثروا فيه بالثقافة الفرنسية التي تفرض عليهم أنماطاً جديدة في طرق تفكير وسلوك وعادات وغير ذلك . فيظل الإنسان السنغالي بل المجتمع السنغالي متردداً بين ماض يكاد ينفلت من أصابع يده وبين مستقبل لا يعلم كنهه ولا أبعاده .

وسوف نتعرض لهذه الظاهرة من خلال دراسة سريعة لأربع روايات كتبت في فترات مختلفة ودارت أحداثها في أزمنة متباينة متناولة بيئات سنغالية مختلفة ومبينة موقف كل بيئة منها تجاه الثقافة الفرنسية الدخيلة . والروايات هي : « كريم » من تأليف عثمان سوسى و« المغامرة الغامضة » للشيخ حامد كان و« يا وطني ، يا شعبي الجميل ! » للكاتب والسينمائي عثمان سامبين و« نداء ساحة المصارعة » للروائية آمنة سوفال . ولا يمكننا في حدود هذا المقال إلا أن نتعرض لمعالم هذه الظاهرة العريضة دون تناولها في دراسة تفصيلية إذ تصلح كل رواية في حد ذاتها لدراسات جادة واسعة النطاق . ومن الجدير بالملاحظة أننا لا نعني بالواقعية هنا معناها التقليدي فقط وإنما نعني كذلك كون ظاهرة هذا الصراع في صميم حياة المجتمع السنغالي بحيث يصبح قضية من قضايا الالتزام الأدبي .

* * *

## المغامرة الغامضة أو التردد بين قبول الحضارة الوافدة ورفضها :

على الرغم من أن هذه الرواية تحكي قصة إنتقال صبيّ

---

(*) غني عن البيان أن المقال يدور حول الأدب السنغالي باللغة الفرنسية ولا يعنينا ونحن نتحدث عن الظاهرة التي تعالجها الروايات ترتيب سنوات صدورها بقدر ما تعنينا طبيعة هذا الصراع الذي صنفناه على أربع مراحل حسب هذا الترتيب :

1- Cheikh H. Kane, **Aventure ambigue,** Julliard, Paris 1961.

2- Ousmane Socé, **Karim,** Nouvelles Editions Latines Paris.

3- Ousmane Sembène, **O Pays, mon beau peuple,** le Livre Contemporain, Paris 1957.

4- Aminata Sow Fall, **L'appel des arènes** N.E.A. Dakar 1982.

من المدرسة الإسلامية التقليدية إلى المدرسة الفرنسية الجديدة ثم إلى فرنسا حيث يدرس الفلسفة ويرجع ليموت إثر إخفاقه في التوفيق بين هذه الثقافات ، وعلى الرغم من أن هذه الرواية نشرت في بداية الستينات ودارت أحداثها بعد الحرب العالمية الأولى ، فإنها تمثل أولى مراحل الصراع الثقافي : الثقافة السنغالية الإسلامية والثقافة الفرنسية المسيحية أو العلمانية . فصمب جالو بطل الرواية من أنجب تلاميذ الشيخ تيرنو ، حتى أن هذا الأخير ليبالغ في إعداده ليحل محله في قيادة الأمة الفولانية في المستقبل ، غير أن الظروف شاءت أن تطرأ احداث تقضي على بلد الجالوبيين أن يضحوا بأخيار شبانهم حتى ينجوا من هذه الكارثة . وتتمثل هذه الكارثة في الطريقة الجديدة التي يحارب بها الفرنسيون بعد انتصارهم في الغزو المسلح . وهذه الطريقة الجديدة هي المدرسة الجديدة . فيتحتم على الجالوبيين أن يدخلوا هذه الحرب الجديدة ، أي المدرسة الجديدة ليدرسوا من الفرنسيين « كيف يستطيع المرء أن ينتصر بلا حق » إذ كما هزم الفرنسيون السكان الأصليين بأسلحتهم المتقدمة هزموهم أيضاً بمدرستهم التي سوف نكتظ بالطلبة على حساب مدرسة الشيخ تيرنو الإسلامية التقليدية التي ترسل طلابها على مضض إلى المدرسة الفرنسية . ولعل ما نراه الآن في بعض المناطق السنغالية النائية التي يرفض سكانها إرسال أبنائهم إلى المدرسة الفرنسية قريب من هذه المرحلة

ومن الجدير بالذكر أنه رغم ضرورة إرسال أبنائهم إلى المدرسة الجديدة فلا يزال سكان جالوبي مقتنعين بأصالة مدرستهم . وفي ذلك يقول أحد أبطال الرواية «سوف يدرسون في المدرسة الجديدة جميع طرق ربط الخشب مع الخشب ولكنهم وهم يتعلمون ذلك سوف ينسون أشياء يعوضهم ما يدرسون عما ينسون ؟ » . . وهنا تكمن ركيزة المسألة : أن يتعلم المرء الثقافة الدخيلة دون أن يفقد شيئاً من شخصيته وجوهره وصلته بربّه .

ويتجلى لنا الفرق بين الثقافة السنغالية الإسلامية والثقافة الفرنسية العلمانية واضحاً في الحديث الذي دار بين والد صمب جالو وزميله الفرنسي ؛ فبينما يرى الأول أن لهذه الحياة نهاية وأن الانسان مهما يجهد نفسه لن يسبر من غور الكون إلا قدراً محدوداً ، فإن الفرنسي يعتقد أن الحياة لن تنتهي أبداً على سطح الأرض وأن العلم سوف يكشف عن كل شيء حتى لا يبقى في الكون سرّ مجهول .

ثم يسافر صمب جالو إلى فرنسا لمواصلة دراسته . وتنتقل المدرسة من يد الشيخ تيرنو إلى صمب . فكان أول عمل يقوم به تغيير مواعيد المدرسة التقليدية حتى تناسب المدرسة الجديدة وتموت بذلك رمزياً المدرسة التقليدية . ولكن الصراع بين القديم والجديد يبلغ ذروته في نفس صمب وهو في فرنسا ، فنرى الصلة بينه وبين ربه تضعف تدريجياً فلا يرى والده بدأ من استرجاعه . ورغم عودته يظل شاكاً في ربه ، حائراً بين وضعه النفسي الغامض أمام الثقافات المتداخلة والمتناقضة التي تنتابه ثم لا يلبث أن يموت على يد المجنون ـ وقد جُنّ بسبب اتصاله بالحضارة الاوروبية ـ الذي يمثل الثقافة الإسلامية الافريقية التي لم تعد ترى لصمب جالو باباً آخر للسلامة . ولم يقتل صمت إلا بعد إيقانه أنه لن يصلّي ، منفذاً في ذلك الحكم الإسلامي في تارك الصلاة بلا عذر . ولا تفوتنا الإشارة إلى أن باستطاعة القارىء أن يقرأ هذا الكتاب الذي قد يسمى رواية على سبيل التجاوز كسيرة ذاتية أو كرواية فلسفية .

## « كريم » أو « صمب لنغير » القرن العشرين :

إذا كانت « المغامرة الغامضة » تمثل إحدى مراحل الصراع الأولى بين الحضارة السنغالية والحضارة الفرنسية ، أي مرحلة الغزو الثقافي بواسطة المدرسة بعد الغزو المسلح ـ فإن رواية « كريم » على الرغم من أنها من طلائع الرواية السنغالية ، وعلى الرغم من أن أحداثها تدور في ثلاثينات القرن العشرين ، فإنها تمثل المرحلة التي نجح فيها المستعمر في بثّ نفوذه سياسياً واقتصادياً وثقافياً إلى حدّ بعيد . فقد نال بطل « كريم » الذي يحمل اسم الرواية الشهادة الابتدائية ، وانتهى من الخدمة العسكرية وبدأ يشتغل في شركة تجارية استعمارية بسين لوي . ولكن على الرغم من دخله البسيط يصرّ على أن يعيش صمب لنغير كأجداده . وصمب لنغيرا كما يشرح صديق كريم لصديقة محبوبته « لم يكن ليهرب من وجه العدو في عصر الملحمة . وكان ، حينما يتغنى بأمجاده الشعراء التقليديون ، يجزل لهم العطاء متخلياً عن جميع أمواله . وكان الشرف والكرامة أعظم شيء عنده حتى ليقتل من يهينه . أما في يومنا هذا ، فصمب لنغيرا يعرف واجبه ويقوم به خير قيام رغم الظروف الصعبة والعقبات .

ويبالغ كريم في الكرم والسخاء تجاه محبوبته ، كما يقتضيه الشرف والكرامة ، فتتكاثف عليه الديون ويهزمه منافسه في البذل والبذخ . حينئذ يغادر « سين لوي » إلى « دكار » حيث يزداد معرفة بالحضارة الاوروبية وينبهر بها مبدلاً بملابسه التقليدية الملابس الغربية ويتصل بأصدقاء مثقفين من المعلمين

والأطباء السنغاليين فيأمل معهم في ظهور حضارة هي خليط من الحضارة الاوروبية والأفريقية قائلين في ذلك « من الخطورة بمكان أن نظل محافظين على طرق حياة وتفكير وعمل لا تلائم إلا أسلوب الحياة التقليدية التي أصبحت في حكم خبر كان أو على الأقل أصبحت في تغيّر وتطور تمين » . وفي النهاية ، وبعد مغامرات غرامية ، يتمكن كريم من كسب قدر من المال يؤهله للزواج بمحبوبته في « سين لوي » عند عودته . ونلاحظ كذلك أن كريم غي بطل الرواية يظل في قرارة نفسه سنغالياً محافظاً على نمط الحياة الأفريقي من ولوع بالاحتفالات والحياة الجماعية والعادات والتقاليد الإسلامية ، ولكنه في الوقت نفسه يتقبل بلا انتقاد الحضارة الغربية ويعترف بتفوقها ، وكأنما الكاتب عثمان سوسي يطالب مواطنيه السنغاليين بالاقتداء « بتلك البلدان ذات الحضارات القديمة » .

وباختصار شديد ، نرى أن الصراع بين الحضارتين السنغالية والفرنسية قد قطع شوطاً لا بأس به ، فأصبحت مسألة التزاوج بين الحضارات واقعاً يفرض نفسه ، ولكن الكيفية التي يتم بها هذا التزاوج الحضاري على أحسن وجه تظلّ علامة استفهام .

## « يا وطني يا شعبي الجميل » أو التزاوج الحضاري المفسوخ :

أما في هذه الرواية التي تدور احداثها إثر الحرب العالمية الثانية والتي نشرت للكاتب الروائي والسينمائي عثمان سامبين سنة ١٩٥٧ فإن الصراع بين القديم والجديد يظل بين المستعمرين المسيحيين والسكان الأصليين المسلمين من ناحية ، ومن ناحية أخرى بين عادات هؤلاء السكان الأصليين وتقاليدهم وما يطرأ عليها من جديد . وبينما يكون البطل في الروايات السابقة طالباً أو متعلماً ، فإن بطل هذه الرواية شبه أمي ولكنه اشترك في الحرب العالمية جنباً إلى جنب مع الاوروبيين الذين ردّدوا معه آية « لقد جاءكم » بشكل مشوّه كي يسلموا من الموت . وبعد الحرب تجول في أوروبا طويلاً وانتهى بعشق فرنسية تزوجها رغم التحديات في فرنسا وتحديات أعظم عند عودته إلى بلده في كاسماس بالسنغال . فأسرته محافظة متدينة ووالده وهو إمام مسجد لا يرضى بمعايشة أوروبية فيضطر الزوجان إلى بناء بيت خاص بهما ، أما الوالدة الحنون التي حرمت من أولادها الذين ماتوا جميعاً في صغرهم إلا عمر ـ بطل الرواية ـ فقد أخذ الأمسّ بقلبها : لقد بذلت النفس والنفيس حتى يظل « خاريل » أو انتظار قضاء الله ـ كما تسميه ـ على قيد الحياة ولكنه يكبر ثم يغرب إلى أوروبا مدة ثم يعود بأوروبية تختطف منها ابنها العزيز .

أما الصدمة التالية التي تصيب هذه الأم المسكينة وأهلها في ابنهم عمر المتأثر بالحضارة الاوروبية فهو اشتغاله بالزراعة وذلك يعني الخروج على العادات والتقاليد التي تحتم على أفراد الأسرة أن يظلوا صيادي أسماك ـ حرفة يتوارثها عن أجداد هم الأبناء ـ . ولكن عمر بفضل اتصاله بأوروبا وحضارتها بدأ يلغي هذه العوائق الطبقية التقليدية . ومما يتمثل فيه الصراع بين الحضارات في هذه الرواية أن التأثر بالحضارة الاوروبية لا يعني فقط الاقلاع عن بعض التقاليد الأفريقية التي لا تساير العصر الحديث ، ولكن يعني أيضاً مواجهة المستعمرين المستغلين ومحاربتهم بأسلحتهم نفسها ، ولعل في ذلك تنديداً بأفاعيل الاوروبيين الزاعمين أنهم جاءوا لمهمة حضارية مستنيرة بينما جاءوا في حقيقة الأمر لمجرد إشباع أغراضهم وأطماعهم . ولعل وقوع البطل ضحية دسائسهم أبرز دليل على سوء نواياهم وامتناعهم عن الإسهام في خلق حضارة تكون بمثابة مزج بين الحضارتين الافريقية والاوروبية .

بيد أن نهاية الرواية تتفاءل في ظهور تزاوج الحضارات ، فموت البطل عمر فاي ـ بعد أن أعطى مثالاً حقيقياً في زواجه بأوروبية وعيشه معها في انسجام ـ ليس إلا تضحية من أجل تزاوج الحضارتين . وكذلك فإن في بقاء المرأة الاوروبية عند أهل زوجها المرحوم ما يؤكد التفاؤل في مستقبل حضاري شامل يساهم فيه الأفارقة والاوروبيون ذوو النوايا الطيبة على حد سواء .

## « نداء ساحة المصارعة » أو المرحلة الاخيرة :

بعد أن أكدت آمنة سوفال براعتها في تحليل المجتمع السنغالي ومعالجة آفاته في روايتها « الشبح » ١٩٧٦ و« إضراب المتسولين » ١٩٧٩ عادت لتنشر روايتها الثالثة في معالجة التقاء الثقافات أو صراع الحضارات وذلك في « نداء ساحة المصارعة » سنة ١٩٨٢ . ففي هذه الرواية نرى عائلة صغيرة مكونة من أب وأم وطفل . فالوالدان منتميان إلى الجيل الجديد ، وبعد تعلمهما في أوروبا وتأثرهما بحضارتها إلى حد الانبهار عادا إلى السنغال ليعيشا على طريقة الاوروبيين في انفراديتهما واحتقارهما لسكان « لوغا » الذين يبدون في نظرهم شعبين متخلفين . أما ابنهما « نالا » فقد عاش في القرية أثناء دراسة والديه في أوروبا . ففي القرية وعند جدته مام فاري عاش الطفل بين اللهو والمرح وقصص السهرات التي تحمله فيها جدته إلى عوالم كلها سحر وبهاء وهناء . فلما عاد والداه

واستـردّاه لم يستطع « سـالا » أن يسعـد في الجـو الكئيب الاوروبي الذي يجتهد أبواه في فرضه عليه فرضاً ، غير أن دقات الطبلات المنبعثة من ساحة المصارعة وصلت إلى أعماق قلبه وهيّجته . ويتطور ولوع الطفل الشديد بالمصارعة وما يصاحبها من رقص وغناء بينما يظل والداه يريان أن ذلك لا يصلح هواية إلا للساذجين المتخلفين فلا يسمحان لابنهما باتخاذ هذا الفن الشعبي هواية . ولكن « نالا » يصبح ـ في غفلة من والديه ـ صديقاً حميماً لبطل المصارعة « مالاو » الذي يظل مصدر الاتصال الوحيد بين الطفل والتراث السنغالي : فبعد الجدة مام فاري والقروي السالومي أندري يأتي دور بطل المصارعة « مالاو » في تكوين شخصية الطفل « نالا » تراثياً ، فيخرج به إلى الغابات ويعلمه أسرار الطبيعة ويحكي له ملحمة جده وكيف أمره والده بالذهاب إلى مدينة لوغا ومناداة الناس الذين يعانون من صمت المدينة الرهيب قبل أن يتلاشوا في جو الحضارة الاوروبية ـ وهذه المناداة تتم بواسطة دقات الطبول في ساحة المصارعة .

هكذا بينما يجتهد والدا « نالا » في تكوين ولدهما على صورة تعجبهما توافق الحضارة الاوروبية فإن المؤثرات التي تحيط بـ « نالا » في مدينة لوغا العريقة تجعله ينفلت من « قبضة » الحضارة الاوروبية التي تمثلها أبواه ، ويتقدم بشكل عجيب في فهم التراث السنغالي ومعايشته ، حتى أن والده لا يملك في نهاية الأمر إلا أن ينضم إليه في ميله إلى التراث كغيره من كبار المثقفين من المواطنين والاوروبيين الذين رغم تعصب بعضهم الشديد فإنهم لم يتمكنوا من تجاهل نداء ساحة المصارعة .

وتمثل هذه الرواية التي تدور أحداثها في سبعينات هذا القرن والتي نشرت في الثمانينات الحلقة الأخيرة أو الراهنة من الصراع بين الثقافة السنغالية الأصيلة والثقافة الفرنسية الدخيلة . فبينما نرى في الروايات السابقة أن الأبطال الذين يمثلون محور الصراع بين الحضارة السنغالية والحضارة الفرنسية قد تأثروا بالثقافة الفرنسية بشكل غير مباشر نجد أن بطل « نداء ساحة المصارعة » لم يتصل مباشرة بالحضارة الاوروبية ، إنما والداه هما اللذان تأثّرا بها إثر معايشتها بشكل مباشر . فالبطل إذا من الجيل الثاني الذي اتصل بالحضارة الاوروبية بواسطة الآباء .

والرواية على قصرها ممتلئة بالمواقف التي تمثل الصراع بين التراث التقليدي والجوّ المعاصر . فوالد « نالا » بملاحظاته الدقيقة وتفكيره المستنير ينتهي إلى الاعتراف بالتراث . أما زوجة « جاتو » والدة « نالا » المتطرفة في ولائها للغرب وفي نبذها للتراث فتظلّ منبوذة في قريتها الأصلية محتقرة من جيرانها المدنيّات .

ويبدو أن الناطق بلسان الروائية السنغالية من بين شخصيات الرواية هو المدرس نيانغ الذي رغم ثقافته الفرنسية يظل شديد الانبهار بالثقافة القومية التي يستوعبها استيعاباً . وإذا كانت الحضارة الاوروبية تغلب على الثقافة القومية في المراحل السابقة فإن الوضع ينقلب عند آمنة سوفال . ولعل في ذلك إشارة متفائلة من الروائية السنغالية ـ التي لا شك أنها عانت في يوم من الأيام من الازدواج الثقافي ـ الى أن الأفريقي المزدوج الثقافة والمتمزق ـ نفسياً ـ بين التيارات الحضارية لا يمكن له حل تناقضات نفسه إلا إذا كان على اتصال وثيق بتراثه القومي مع الاحتفاظ بروابط حية بالثقافات المكتسبة الأجنبية .

ويجمل بنا أن نشير في نهاية هذه العجالة إلى أن هذه الروايات السنغالية التي تعالج ظاهرة الصراع بين الحضارتين السنغالية والفرنسية في المجتمع السنغالي تتسم إلى جانب استمراريتها الزمانية بالاستمرارية المكانية أو بالشمولية فتمتد من أقصى شمال البلادبسين لوي ومن الشمال الشرقي بـ « ماتام » إلى أقصى الجنوب بـ « كازاماس » مارة بلوغا وسالوم فدكار .

**القاهرة**